

الباب الأول
طرفة الرجل

الفصل الأول

بيئته

١

البحرين

نطق العرب اسم البحرين هكذا في حال الرفع والنصب والجر. وذهب
ياقوت إلى أنه لم يُسَمَّعْ على لفظ المرفوع من أحد منهم، إلا الزمخشري، فقد حكى
أنه بلفظ الثنية، فيقولون: هذه البحرين، وانتهينا إلى البحرين^(١).

وهو اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان. قيل: هي
قَصْبَة هَجْر، وقيل: هَجْر: قَصْبَة البحرين. وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة، كانت
في مملكة الفرس، وكان بها خلق كثير من عبد القيس، وبكر بن وائل، وتميم،
مقيمين في باديتها^(٢).

وفي تاج العروس (بحر): «البحرين: كذا في أصول القاموس والصحاح
وغيرهما من الدواوين. وفي المصباح واللسان، بالألف على صيغة المثني المرفوع: بلد

(١) معجم البلدان (البحرين).

(٢) المصدر نفسه (البحرين).

بين البصرة وعمان، وهو من بلاد نجد، ويعرب إعراب المثني، ويجوز أن تجعل النون محل الإعراب، مع لزوم الياء مطلقاً، وهي لغة مشهورة، واقتصر عليها الأزهري، لأنه صار علماً مفرد الدلالة، فأشبهه المفردات، كذا في المصباح. قال الأزهري: وإنما ثنوا البحرين، لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى هجر، بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ، وقدرت البحيرة ثلاثة أميال في مثلها».

يتضح من تعريف القدماء للبحرين أنها كانت قديماً اسماً جامعاً لتلك البلاد الشاسعة الواقعة بين البصرة وعمان، ويستفاد من كلام صاحبي المصباح واللسان أنهما من بلاد نجد، أي من المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية اليوم. أما البحرين المعروفة الآن، فهي الإمارة العربية المحاطة بالبحر في الخليج العربي.

وقد شهدت هذه البلاد منذ عصور سحيقة في القدم ازدهاراً في التجارة وركوب البحر، واستخراج ما في عبابه من سمك ولؤلؤ.

فقد كانت من مراسي السفن الشهيرة في الألف الثالثة قبل الميلاد، تؤمها السفن القادمة من العراق في طريقها إلى الهند، والسفن القادمة من الهند في طريقها إلى العراق^(١).

ونتيجة عن هذا الازدهار التجاري، وازدحام موانئها بالسفن الراححة الغادية نشوء صناعة السفن فيها؛ إذ كان لا بد للتجارة من أسطول تجاري ينقل البضائع منها وإليها.

ويبدو أن مشاهد السفن المقلعة من البحرين، أو الميممة صوب سواحلها غدت مألوفاً لدى سكان البحرين؛ فقد شبه طرفه بن العبد حدوج المالكية بها فقال:

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٥٥٦/١.

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوْصِفِ مِنْ دَدٍ^(١)
عَدُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي^(٢)

وتفيد الأخبار أن البحرين كانت من أكثف المناطق في جزيرة العرب سكاناً، ذلك أن نسبة عدد سكانها بالقياس إلى مساحة أرضها كانت عالية، بسبب توافر الماء فيها، وتيسر صيد السمك، واستخراج اللؤلؤ من البحر؛ مما هياً للأهلين فيها عيشاً طيباً ميسراً، وجعلها حاضرة كثير من الجاليات، قدمت إليها من العراق والهند وإيران، واتخذتها موطناً لها قبل الإسلام بزمن طويل^(٣).

ولم تقتصر البحرين على التجارة واستخراج كنوز البحر الخبيثة في عبايه، بل كانت قصبتهما هجر مشهورة بزراعة النخيل، وقد عرفت بكثرة تمرها، ومنه المثل: «كَمْبُضِعِ تَمْرٍ إِلَى هَجْرٍ»^(٤).

وقد سهّل انفتاحها على البحر للأجناس المختلفة أن تفتد إليها من الهند وإيران والعراق، حاملة معها ثقافات ومعارفها، وبذلك قيّض للبحرين أن تستقي من تلك الينابيع الثقافية المتنوعة مما جعل منها بيئة فكرية خصبة إلى جانب ازدهارها التجاري^(٥).

وساعد غناها وما كان يَتمتع به أهلها من بحبوحة العيش على التفكير باستيراد الرقيق من الهند، ففتحت أسواقها لاستيراده، ليكون عاملاً من عوامل حيويتها وازدهارها وغناها.

وطبيعي أن ينشط الشعر في مثل تلك البيئة الخصبة الغنية، فينشأ فيها

(١) الحدوج: جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء. والمالكية: من بني مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. والخلايا: السفن العظام، واحدها خلية. والنواصف: مواضع تتسع من الأدوية كالرحاب، واحدها ناصفة. ود: اسم موضع في البحرين.

(٢) عدولية: نسبة إلى عدول، وهي قرية بالبحرين. وابن يامن: ملاح من أهل هجر. ويجور: يميل. ويهتدي: يمضي للقصد.

(٣) جواد علي ١/١٩٢، ٨/٧٨٣.

(٤) الصحاح والقاموس والتاج (هجر)، جواد علي ٧/١٧٤.

(٥) جواد علي ١/١٩٢، ٨/٧٨٣.

شعراء فصحاء مجيدون، وهذا ما قرره ابن سلام بقوله: «في البحرين شعر كثير جيد وفصاحة»^(١). وذكر من شعرائها المثقب العبدي، والممزق العبدي، والمفضل بن معشر^(١).

وتفيد النقول التاريخية أن بكر بن وائل، قبيلة طرفة بن العبد، كانت من القبائل العربية الكبيرة التي هاجرت من ديارها القديمة تهامة إلى اليمامة ثم إلى البحرين والعراق، إثر الحروب الكثيرة المنهكة التي وقعت بين العدنانيين^(٢).

وفي القرن الخامس للميلاد كانت بكر وأكثر قبائل معدّ تدين بالطاعة للتبابعة، ثم لملوك كندة، وأولهم حجر آكل المرار الذي انتزع من المناذرة اللخمين ما كان في أيديهم من ملك بكر بن وائل، ووسّع ملكه، ثم خلفه ابنه عمرو المقصور، وبقيت بكر تابعة له، ثم لابنه الحارث الذي اغتصب عرش الحيرة من اللخمين، وبلغت كندة في عهده ذروة مجدها. وكان قد وزع أبناءه على القبائل، ليتولوا إدارة شؤونها، ويضمن ولاءها وخضوعها لسيطرته، وكانت بكر من نصيب ابنه شراحيل^(٣).

ولكن الأيام قلبت للحارث ظهر المجن، وأعاد أنوشروان ملك الحيرة إلى أصحابه اللخمين، ودبّ النزاع بين أولاده، ونقضت القبائل ولاءها له، وانقضت عن الكنديين، وراحت تسعّر نيران الحرب فيما بينها^(٤).

كانت الرئاسة على تغلب وبكر وقبائل معدّ آنذاك لكليب وائل. وقد عظم شأنه، وقاتل جموع اليمن، وهزمهم، فجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيته وطاعته. وغير بذلك حيناً من دهره، ثم دخله زهو شديد، وبغى على قومه، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب، فلا يرعى حماه، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له، وحمى أكثر الأرضين، فلم يسمح لأحد بالرعي فيها إلا

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٧١/١.

(٢) أبو الفداء ٤٨/١، الطبري ٦٦/٢ نقلًا عن جواد علي ٥٠٠/٤.

(٣) جواد علي ٥٠١/٤.

(٤) المصدر نفسه ٥٠١/٤.

بإذنه. وهزت إبل جسّاس بن مرّة، سيد بني بكر يوماً من أمامه، وفيها ناقة لخالته البسوس، فلما رآها كليب أنكرها، ثم قال: لمن هذه الناقة؟ فقالوا: لخالة جسّاس، فقال: أو بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليّ بغير إذني، ثم رمى ضرعها بسهم، فاختلط لبنها بدمها. ولما علم جسّاس بالأمر ثار لكرامته، وقتل كليياً في أول فرصة سنحت له، فثارت تغلب لمقتله، وهبّ أخوه مهلهل يطالب بدمه، وينادي بالثار له من بكر، ودارت بين القبيلتين بكر وتغلب رحي حرب طاحنة طويلة، استمرت على ما يذكر المؤرخون أربعين سنة، هلك فيها خلق كثير، وسميت حرب البسوس^(١).

ومن أيام هذه الحرب يوم عُنيّة، وكان سجلاً بين الطرفين، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر، ويوم قِضة (تحلاق اللمم)، وكان النصر فيه لبكر، وفيه قال طرفة بن العبد^(٢):

سائلوا عَنَّا الَّذِي يَعْرِفُنَا بِقَوَانَا يَوْمَ تَحْلَاقِ اللَّمَمِ^(٣)
يَوْمَ تُبْدِي الْبَيْضُ عَنِ أَسْوَاقِهَا وَتَلْفُ الْخَيْلُ أَعْرَاجَ النَّعَمِ^(٤)

ويفيد شعر طرفة أنه أكثر التجوال في بقاع نجد، ففي معلقته ذكر لبقاع مترامية الأطراف، منها: دجلة، وهو النهر المعروف الذي يصب في الخليج العربي شرقي الجزيرة العربية، وحومل في غربيها، ونهمد قرب نفي في وسط نجد، وضرغد في شمال نجد الغربي، ودّد في نواحي البحرين، وهو واد يصب في

(١) أبو الفداء ٧٧/١، ابن خلدون ١/٢ نقلًا عن جواد علي ٥٠١/٤، وانظر أيام العرب في الجاهلية: ١٤٢ وما بعدها.

(٢) ديوانه بشرح الأعلام: ١٠٤.

(٣) اللمم: جمع لمة، وهي الشعر. والتحلاق: الحلق. وكان الحارث بن عباد رئيس بكر أمرهم بحلق رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضاً.

(٤) تبدي البيض عن أسواقها: أي ترفع النساء ذيوهنّ للهروب. والأعراج: جمع عرج، وهو ما بين الخمسين والمئة إلى المئتين من الإبل. وتلف الخيل: أي تجمع النعم وتسوقها.

البحر الشرقي، وروضة دُعْمِيَّ في نجد، والصفاء والمُشَقَّر في هجر، والقَفَّان في نجد^(١).

ومن ثَمَّ كانت البيئة التي عاش فيها طرفة واسعة متباعدة شاسعة، خَلَّد معالمها في شعره، واستودعها عزيز ذكرياته.

(١) انظر صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار (طرفة).

الحيرة

لم تظفر هذه المدينة القديمة السيئة الحظ بوثائق تاريخية قاطعة تؤرخ لها. ولهذا كثر كلام المؤرخين واللغويين وعلماء تقويم البلدان على أصل تسميتها، وكان بينهم في ذلك جدل طويل عريض، كما هو شأنهم في أكثر المدن القديمة التي بعد عهدها عنهم، فحاروا فيها.

ويرى معظم المستشرقين أن كلمة (حيرة) من «حرتا Harta» السريانية الأصل، ومعناها: المخيم أو المعسكر^(١).

وكما اختلف المؤرخون في أصل تسميتها، اختلفوا أيضاً في تأسيسها، وفيمن قاد موجة الهجرة الأولى إليها، وما تبعها بعد ذلك من هجرات، وطال في ذلك كلامهم، وتشعبت أقوالهم.

وليس من غرضنا في شيء أن نرتاد معهم العصور السحيقة التي ارتادوها، فهذا يخرج بنا عما نحن فيه، وإنما نكتفي بعرض خلاصة لما وقفوا عنده من آراء.

فمنهم من ذهب إلى أن مؤسسها هو «بختنصر»، ومنهم من قال: إنه

(١) انظر جواد علي ٥/٤.

«الأردوان» ملك النبط، ومنهم من رأى أنه «تبع»^(١).

على أن الشيء الذي لا خلاف فيه بينهم أن موجات من العرب اندفعت من الجزيرة إلى العراق، فنزلت الخيام في أول الأمر، ثم تحولت إلى قرية في الجنوب الشرقي من مدينة النجف الحالية^(٢)، وما لبثت هذه القرية أن أصبحت حاضرة العرب الوافدين إلى العراق، ثم تمر الأعوام فإذا هي عاصمة مملكة عربية، تألق نجمها على شاطئ الفرات الأيمن الخصيب.

تسّم عرش الحيرة المناذرة، فعرفت بهم تقاليد الملك، وأبهة السلطان، وأنشئت فيها القصور الفخمة والمنازل الجميلة والمباني العامة، كالأديرة والبيع والمدارس وحوانيت التجارة ودور الصناعة والخانات، وحفلت بذكرها أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم، فكم تغنى الشعراء بعظمة قصرها الخورنق والسدير، ووصفوا جمال بنيانها، وأشادوا بطيب سكنائها وصحة هوائها ونعيم الحياة فيها. وقد حباها موقعها الجغرافي الجميل شهرة أطارت ذكرها في أصقاع العرب، حتى قالوا فيها: «يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة»^(٣). ومما وصفت به: «منزل بريء مريء صحيح من الأدوية والأسقام»^(٤).

وتهباً للحيرة، إلى جانب ازدهارها السياسي، أن تزدهر زراعتها، فتجبي إليها ثمرات ما يحيط بها من الأراضي الخصبة، والجنان الفيح والقرى الفسيحة الغنية، كما تهباً لها أن تكون سوقاً تجارياً كبيراً، تتداول فيه البضائع المستوردة إليها والمصنوعة فيها.

ومما لا ريب فيه أنها كانت تننّس في جو الحضارة الفارسية التي كانت تبسط ظلها على المنطقة، وربما سقطت إليها بعض تأثيرات من الحضارة

(١) جواد علي ١٠/٤، ومعجم البكري ٤٧٩/٢.

(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي: ٤٤.

(٣) الإصطخري: ٨٢.

(٤) الطبري ١/٨٥٠.

البيزنطية بحكم الحروب التي كانت رهاها تدور بين المناذرة وغساسنة الشام والبيزنطيين^(١).

كل ذلك أعدّ الحيرة لأن تكون قاعدة خصبة لحضارة غنية، ومقر مملكة مترفة يفيء إلى ظلها الشعراء العرب كلما أرمضتهم رمضاء الصحراء، وأجهدهم لغوب الكدح وقسوة العيش.

(١) انظر بيئة العراق في التطور والتجديد في الشعر الأموي لشوقي ضيف: ٣٩.

ملوك الحيرة

توالى على عرش الحيرة ملوك المناذرة الذين دان لهم كثير من أقطار العرب وقبائلهم بالطاعة، كاليمامة ونجد والبحرين وعمان، وقبائل العراق، وعلى رأسها بكر وتغلب، وكثير من قبائل نجد^(١)، وإن كانوا هم واقعين تحت النفوذ الفارسي، يدينون للأكاسرة بالطاعة، ويحملون إليهم الخراج^(٢).

وقد عرف ملوك الحيرة عند أهل الأخبار بـ (آل لحم)، وبـ (آل نصر)، كما عرفوا بـ (النعامنة)، وبـ (المناذرة)، وذلك لشيوع اسم النعمان واسم المنذر فيما بينهم، وعرفوا أيضاً بـ (آل محرق)^(٣).

وكان لقبائل البحرين ونجد واليمامة صلة بملوك الحيرة، ولهم منهم مواقف حسنة أحياناً، ومسيئة أحياناً أخرى. ولسان القبائل في مثل هذه المواقف الشعراء، فهم ألسنتها الناطقة باسمها مديحاً أو هجاء، وهم سفراؤها إلى الملوك.

ومن ثم كان دور الشعراء خطيراً في هذه المواقف، فهم بين مباح مثن، أو ذام قاذح، أو رسول قوم جاء إلى الملوك في وفادة لفك أسير، أو لإصلاح ذات بين، أو نيل

(١) شوقي ضيف، العصر الجاهلي: ٤٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٦٠.

(٣) التنبيه: ١٥٨، نقلًا عن جواد علي ٣/ ١٥٩.

عطاء، ولا نكاد نجد شاعراً من الفحول، أو من الشعراء المشهورين، إلا وله صلة بملك، أو أكثر، من هؤلاء الملوك.

ومما زاد في توطيد تلك الصلات بين ملوك الحيرة والقبائل العربية، قربهم من البادية، وانسباط نفوذهم على رقعة فسيحة من دنيا العرب، بلغت أيام أمرىء القيس أسوار نجران^(١)، زد على ذلك ما كانوا يتمتعون به من حرية نسبية في تصريف شؤونهم الداخلية، وتنظيم علاقاتهم بالقبائل العربية البعيدة والمجاورة، وهذا ما لم يتوافر لجيرانهم ملوك غسان.

فقد كانت البادية بعيدة عن مناطق نفوذ الغساسنة، فلا صلة لهم بقبائلها، ولا بقبائل الحجاز ونجد واليمامة والبحرين، إلا من وصل إليهم من أصحاب الحاجات، أو هرباً من غضب المناذرة، أو جاءهم مستشفعاً في فك أسير. وكانت مناطق نفوذهم أضيق رقعة من مناطق نفوذ المناذرة، وكانت قبضة الروم عليهم أشد من قبضة الفرس على المناذرة، بحيث لم يكونوا يسمحون لهم بالتحرك إلا بعد استشارتهم، ولا أن يتصلوا بالعرب إلا بأمر منهم. ومن ثم خبت حماستهم لاستقدام الشعراء إلى بلاطهم وإغرائهم بالعطاء الجزل الوفير، اللهم إلا إذا جاء الشعراء إليهم، ورموا بأنفسهم ضيوفاً عليهم.

أما سادة الحيرة فكانوا على النقيض من ذلك، كانت مصلحتهم السياسية تقتضي تألف قلوب الشعراء والإغداق عليهم والترحيب بهم، استرضاء لسادات القبائل العربية، الذين يوطدون نفوذهم بين العرب، وينشرون ذكرهم، وينوّهون بمآثرهم، في تلك المناطق الواسعة من جزيرة العرب كالبحرين التي كانت تابعة للحيرة، يحكمها عامل يعينه ملك الحيرة، وغيرها من مناطق نجد واليمامة وعمان.

أما من كان يخالف عن أمرهم من الشعراء، ويناصبهم العدا، أو يقصر في

(١) جواد علي ٢٩١/٩.

الدعاية والولاء لهم فكان يهرب من غضبهم عليه إلى أعدائهم الغساسنة، لاجئاً إليهم، لاثناً بحماهم، كما فعل النابغة والمتملمس^(١).

ولكن سرعان ما يجد هؤلاء اللاجئون إلى حمى الغساسنة أن حفاوة هؤلاء بهم دون حفاوة المناذرة، وأن خفض العيش في كنف المناذرة أوفر وأمتع منه في كنف الغساسنة، فيتطلعون إلى العودة إلى أولئك، وهذا ما يفسر قصر مكث النابغة الذبياني عند الغساسنة، وتحمله إلى الحيرة معتذراً من النعمان بن المنذر عما بدر منه، مفنداً أقاويل الوشاة الذين أوقعوا بينها، مشيداً بعطائه الجَمِّ، ونائله الغمر، وفضله السابغ العميم.

كان بلاط المناذرة إذاً موثلاً لكثير من الشعراء، وبخاصة شعراء بكر وتغلب، يؤمونه مادحين، أو مستشفعين، أو معتذرين، أو باسطين بين يدي العاهل المنذري أوضاع قومهم وقبيلتهم، إزاء خصومهم، ومطالبين إياه بالتدخل بينهم لإحقاق الحق، ودرء الظلم، وتنفيذ العهود بين الفريقين.

ومن الشعراء الذين أموا البلاط المنذري الحارث بن حلزة، إذ أنشد بين يدي عمرو بن هند مطولته، باسطاً العلاقة المتوترة بين قبيلته بكر وخصيمتها تغلب، مندداً باعتزامها نقض العهود المقطوعة بين القبيلتين على حقن الدماء، والبعد عن الجور والعدوان، مشنعاً على بني تغلب سعيهم بالوشاية عند الملك عمرو، ليوغروا صدره على بكر^(٢):

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادٍ، وَمِنْ مُجِيبٍ، وَمِنْ تَضٍّ هَالٍ خَيْلٍ، خِلَالِ ذَاكَ رُغَاءُ
أَيُّهَا النَّاطِقُ، الْمُرْقُشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو، وَهَلْ لِدَاكَ بَقَاءُ؟

(١) انظر جواد علي ٢٩١/٩.

(٢) انظر المهجاء والمجاءون في الجاهلية للدكتور محمد محمد حسين: ١٤٣ وما بعدها، وشرح القصائد العشر للتبريزي - قصيدة الحارث بن حلزة.

لا تَخْلُنَا عَلَى غَرَاتِكَ، إِنَّا قَبْلُ مَا قَدْ وَشَىٰ بِنَا الْأَعْدَاءُ^(١)

ثم يفخر بماضي قومه وقوة بأسهم وصمودهم أمام الحوادث، وبظفرهم على أعدائهم، ويشيد بالمنذر بن ماء السماء، مستميلاً بذلك ابنه عمراً، فيسبغ عليه من الثناء ما يجعله لا كفاء له:

مَلِكٌ، أَضْلَعُ الْبَرِيَّةِ، مَا يُو جَدُّ فِيهَا لِمَا لَدَيْهِ كِفَاءُ^(٢)

ويتجه بعد ذلك إلى بني تغلب، فيتهدهم، وينذرهم سوء عاقبة كبرهم وتعاميهم عن الحق، وجورهم وعدوانهم، ونقضهم العهود والمواثيق في ذي المجاز:

فَاتْرُكُوا الطَّيْخَ وَالتَّعْدِي، وَإِمَا تَتَمَاشُوا، فِي التَّعَاشِي الدَّاءِ^(٣)

وَأَذْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قَدْ مَ فِيهِ الْعُهُودُ، وَالْكَفْلَاءُ^(٤)

حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعْدِي، وَلَنْ يَنْ قُضَ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءِ^(٥)

ويعضي الحارث في قصيدته يعيرهم بهزائمهم، معددا القبائل التي قهرتهم وهزمتهم، ثم يختم قصيدته بمديح الملك عمرو بن هند، فيجبه الوشاة الشائنين الكائدين بأن لقومه عند الملك عمرو من الخلال الرفيعة والمكرمات الحسان ما يملأ نفسه ثقة بهم، واطمئناناً إليهم، ثم يشيد بالملك عمرو وما اتصف به من عدل، وحسن سيرة، ومعروف، وقدم ملك، وسعة حلم، مذكراً إياه بآيات ثلاث لقومه عنده، فيهنّ القضاء الفصل بولائه لهم:

أَيُّهَا الشَّائِيءُ الْمُبْلَغُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو، وَهَلْ لِذَاكَ انْتِهَاءُ؟

(١) يقول: لا تحسب أنا جازعون لإغرائك الملك بنا، فلطالما وشى بنا الأعداء ليهلكونا فلم يقدرُوا على ذلك

(٢) أضلع البرية: أي ليس في البرية أحد يضطلع من الأمور بمثل ما يضطلع.

(٣) الطيخ: الكلام القبيح، أو الكبر والعظمة. والتعاشي: التعامي.

(٤) ذو المجاز: موضع بمكة المكرمة، وفيه أخذ عمرو بن هند على تغلب وبكر العهود والمواثيق.

(٥) المهارق: الصحف.

إِنَّ عَمْرَأَ، لَنَا لَدَيْهِ خِلَالَ غَيْرَ شَكِّ، فِي كُلِّهِنَّ الْبَلَاءِ
 مَلِكٌ، مُقْسِطٌ، وَأَكْمَلُ مَنْ يَمُ شَيْ، وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَّأِ
 مَنْ لَنَا عِنْدَهُ، مِنَ الْخَيْرِ، آيَا تٌ ثَلَاثٌ، فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءِ

ويعمضي في تعداد هذه الآيات الثلاث:

وأولها: وقوفنا إلى جانب الملك عمرو حين أغار بنو الشقيقة، وهم قوم من بني شيبان، على إبل له.

وثانيها: ما صنعنا بحجر غداة غزا امرأ القيس أبا المنذر بن ماء السماء بجمع من كندة كثير، إذ خرجنا معه، فحططنا كتيبته الفارسية الخضراء، ورددناه على عقبه مدحوراً.

وثالثها: فكنا أغلال امرئ القيس، أخي عمرو بن هند لأبيه، وكانت غسان أسرته يوم قُتِلَ أبوه المنذر، فأغارت بكر بن وائل مع عمرو بن هند على بعض بوادي الشام، فقتلوا ملكاً لغسان، واستنقذوا امرأ القيس^(١).

ثم أضاف الحارث ما بين بكر وعمرو بن هند من نسب قريب وصهر، يجعلانهم موضع ثقته، ويوجبان عليهم أن يحضوه الوُدَّ والوفاء والإخلاص.

ولا ريب أن هذه القصيدة قد تركت أثراً في نفس عمرو بن هند، فأدناه من مجلسه، وكان محجوباً عنه، لبرص كان به، وخلص سبيل السبعين من بني بكر الذين كانوا محتجزين عنده رهينة أن تنشب الحرب بينهم وبين تغلب^(٢).

وإنها لو واضحة الدلالة على ما كان يشهد قصر المناذرة من مواقف ومساجلات، تُعَرِّضُ فِيهَا قَضَايَا الْقِبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتُسْتَعَرِّضُ أَيَّامَهُمْ، وَمَا قَدَّمُوهُ لِلْبَيْتِ الْمُنْذَرِيِّ مِنْ خِدْمَاتٍ.

ومن الشعراء الذين وفدوا على القصر المنذري، المثقَّب العبدي، وكان

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي، البيت: ٧٩.

(٢) المصدر السابق، مقدمة قصيدة عمرو بن كلثوم، ومقدمة قصيدة الحارث بن حلزة.

معاصراً لعمرو بن هند، ويبدو أنه كان جريئاً صريحاً في مخاطبته، حتى إن الأصمعي ذهب إلى أن هذا الخطاب الجريء لا يمكن أن يكون من شاعر للملك عمرو بن هند^(٣)، وذلك في قصيدته النونية التي استهلها بالنسيب، ثم وصف ناقته وصفاً مسهباً، تخلص منه إلى مخاطبة عمرو بن هند قائلاً: (٢)

فَرُحْتُ بِهَا تُعَارِضُ مُسَبِّطاً عَلَى صَحْصَاحِهِ وَعَلَى الْمُتُونِ^(٣)
إِلَى عَمْرٍو، وَمِنْ عَمْرٍو، أَتَنِي أَخِي النَّجْدَاتِ وَالْحِلْمِ الرَّصِينِ
فَلَمَّا أَنْ تَكُونُ أَخِي بِحَقِّي فَأَعْرِفُ مِنْكَ غَثِي مِنْ سَمِينِي
وَالْأَفْطَرِحْنِي وَاتَّخِذْنِي عَدُوًّا أَتَقِيكَ وَتَتَّقِينِي

ومن هؤلاء الشعراء الذين أموا الحيرة، ومدحوا عمرو بن هند: المزمق العبدي، ابن أخت المثقب العبدي، وكان عمرو بن هند قد همّ بغزو قومه عبد القيس، فلما سمع مدحته انصرف عن عزمه^(٤).

ولا يتسع مجال هذا البحث لاستعراض الشعراء الذين قصدوا عرش الحيرة، فأبواب قصور الملوك المناذرة كانت مفتحة المصاريح أمام الشعراء الوافدين من أنحاء الجزيرة العربية، والبلاط المنذري كان يعجّ دوماً بالشعراء.

على أن علاقة المناذرة بالقبائل العربية لم تكن تسير على وتيرة واحدة، ولم يكن الوفاق تاماً دائماً بين الفريقين؛ ذلك أن بعض القبائل العربية كانت تتلملم من دفع الإتاوات للمناذرة، وتأبى الخضوع المطلق لآل لخم، فينشب النزاع، وتتحرك جيوش الحيرة لتأديب العصاة المتمردين، ونجد أخبار هذا النزاع في شعر عدد من شعراء القبائل، وهي أخبار لا نجد لها في كتب التاريخ المألوفة التي لم تحفل بالشعر،

(١) انظر المفضلية: ٧٦، البيت: ٤١.

(٢) المفضلية: ٧٦، الأبيات: ٤٠ - ٤٣.

(٣) المسبّط: الطريق الممتد. وتعارض: تأخذ في عرضه، أي تسير بإزائه كأنها تختصره مخافة أن تضل.

والصحصاح: ما استوى من الأرض. والمتون: جمع متن، وهو ما صلب من الأرض.

(٤) المؤلف: ١٨٥، وانظر الأصمعي: ٥٨.

فضاع عليها كثير من تاريخ الحيرة، وأخبار ذلك النزاع الذي سجله الشعر، وذكر
المناسبات الدواعي التي أدت إلى قوله: (١)

ويدخل هذا الشعر في باب الهجاء السياسي، الذي وقف فيه الشعراء
يسدّدون سهامهم إلى المناذرة، منافحين عن حقوق قبائلهم، ذابّين عن حماها،
ناثرين على الظلم الذي حاق بهم من بسط سلطان المناذرة، وفرضهم إتاوات غير
عادلة عليهم (٢).

فهذا جابر بن حُنَيّ التغلبي يأسى لقومه الذين فرّق بينهم الشرّ، وصدّع
وحدتهم، وهدم بنيانهم، فصاروا إلى الذل وقبول الديات، وكانوا أعزة لا يرضون
إلا بأخذ الثأر. ومن الذل الذي حاق بهم أداؤهم الإتاوات كارهين لجباة المناذرة،
ثم تأخذه العزة بماضيتهم الحافل بالمكرمات والفعال الحميدة، فينبري للمناذرة
مهدياً متوعداً، مشيداً بقوة قومه وحسن بلائهم في الحروب: (٣)

لَتَغْلِبَ أَبْكَي إِذْ أَثَارَتْ رِمَاحُهَا غَوَائِلَ شَرِّ بَيْنَهَا مُتَثَلِّمِ
وَكَانُوا هُمُ الْبَانِينَ قَبْلَ اخْتِلَافِهِمْ وَمَنْ لَا يَشُدُّ بُيَانَهُ يَتَهَدَّمِ
أَنْفَتْ لَهُمْ مِنْ عَقْلِ قَيْسٍ وَمَرْتَدٍ إِذَا وَرَدُوا مَاءً، وَرُمِحَ بِنِ هَرْتَمِ (٤)
وَيَوْمًا لَدَى الْحَشَارِ، مَنْ يَلُو حَقُّهُ يُبْزَبُزُ، وَيُنْزَعُ ثَوْبُهُ وَيُلْطَمِ (٥)
وَفِي كُلِّ أَسْوَاقِ الْعِرَاقِ إِتَاوَةٌ وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ (٦)

(١) جواد علي ٦٩٣/٩.

(٢) انظر الهجاء والهجاءون في الجاهلية (الهجاء السياسي) للدكتور محمد محمد حسين:

١٣٧ - ١٥٩.

(٣) المفضّلية: ٤٢.

(٤) أنف لهم أن يأخذوا دية قيس ومرثد ورمح، ولا يدركوا بثارهم، فينظر الناظر إلى دياتهم من الإبل إذا
وردت، فيعيرهم بها.

(٥) الحشّار: الحاشر، وهو الجاني يحشر المال، أي يجمعه. ويلوي: يمطل. ويُبْزَبُزُ: يُتَعَتَعُ، أي يُدْفَعُ.

(٦) الإتاوة: الخراج. والمكس: ضريبة كانت تؤخذ من بائعي السلم في الجاهلية.

أَلَا تَسْتَحْيِي مِنَّا مُلُوكَ وَتَتَّقِي مَحَارِمَنَا لَا يَبُوءُ الدَّمُ بِالدَّمِ (١)
نُعَاطِي الْمُلُوكَ السُّلَمَ مَا قَصَدُوا بِنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمٍ (٢)
وَكَاثِنُ أَرْزَانِ الْمَوْتِ مِنْ ذِي تَحِيَّةٍ إِذَا مَا أَرْدَرَانَا أَوْ أَسَفٌ لِمَائِمٍ
وَعَمْرُو بْنُ هِنْدٍ قَدْ صَقَعْنَا جَبِينَهُ بِشَنْعَاءِ تَشْفِي صَوْرَةَ الْمُتَطَلِّمِ (٣)
يَرَى النَّاسُ مِنَّا جِلْدَ أَسْوَدَ سَالِحٍ وَفَرَوَةَ ضِرْغَامٍ مِنَ الْأَسَدِ ضَيْغَمٍ (٤)

ويصور الأحنس بن شهاب التغلبي سيطرة اللخمين المناذرة على مناطق نفوذهم في أرض العرب، حيث تجبى إليهم ثمراتها من الضرائب والمكوس، ولا يرد لقائلهم قول، بل إذا قال قائلهم قولاً أصبح واجباً مقضياً: (٥)

وَلَخَّمْ مُلُوكَ النَّاسِ يُجْبَى إِلَيْهِمْ إِذَا قَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ فَهَوَّ وَاجِبٌ

فلا بدع إذاً أن يتململ العربي الذي تعشقت نفسه الحرية والانطلاق من القيود، وكرهت السلطان المنظم الذي يخضع الناس جميعاً لأمره، لا بدع أن يتململ من الخضوع للمناذرة، وتنفيذ ما يأمرون به. وإننا لواجدون في الشعر الجاهلي تعبيراً صادقاً عن هذا التملل والضيق والثورة، كما في قصيدة يزيد بن الحذاق الشنبي، وهو شاعر من عبد القيس. فقد ترامى إليه أن النعمان آلى على نفسه أن يغزوهم، ليخضد من شوكتهم، ويفلّ من غرب عزّتهم، ويكرههم على دفع المكوس أدلة طائعين، فوقف يزيد في علياء عزّته، وعلى ربوة اعتداده بقومه، يصرخ في وجه النعمان بملء فيه: أن تحلّل من قسمك الأثم، إذ لا قبيل لك بالوفاء به، فما نحن بملاحين أدلة، نعطي المكوس عن يدٍ صاغرةٍ من يطلبها، ولو بعثت بعيونك

(١) لا يبوء الدم بالدم: أي جدار أن تبوء دماؤهم بدماء من قتلوهم، فيقتص منها.

(٢) ما قصدوا بنا: أي عدلوا.

(٣) صقعنا: ضربنا. وشنعاء: ضربة مفضعة. والصورة: شبه الحكمة يجدها الإنسان في رأسه. والمتظلم: الظالم.

(٤) الأسود: العظيم من الحيات، ويقال له: «سالح» لأنه يسليخ جلده في كل عام.

(٥) المفضلية: ٤١ البيت: ١٧.

لتشهد ما نحن عليه من قوة لوافتك نبأ الجمع اللجب رابضاً حول أبياتي، متاهباً متحفظاً: (١)

تَحَلَّلْ، أَيْتَ اللَّعْنِ، مِنْ قَوْلِ آئِمٍ إِذَا مَا قَطَعْنَا رَمْلَةً وَعَدَابَهَا أَقِيمُوا بَنِي النَّعْمَانِ عَنَا صُدُورَكُمْ أَكَلْ لَنِيمٍ مِنْكُمْ وَمُعْلَهَجٌ أَلَا ابْنَ الْمُعْلَى خَلْتَنَا وَحَسِبْتَنَا فَإِنْ تَبَعْتُوا عَيْنًا تَمْنَى لِقَاءِنَا عَلِي مَا لَنَا لَيَقْسَمَنَّ خُمُوسَا فَإِنَّ لَنَا أَمْرًا أَحَدُ غَمُوسَا (٢) وَإِلَّا تُقِيمُوا كَارِهِينَ الرُّؤُوسَا يَعُدُّ عَلَيْنَا غَارَةً فَجُبُوسَا (٣) صَرَارِي نُعْطِي الْمَاكْسِينَ مُكُوسَا (٤) تَجِدُ حَوْلَ آيَاتِي الْجَمِيعَ جُلُوسَا

وليزيد بن الحذاق الشني قصيدة أخرى، يتهم فيها النعمان بالخيانة والخداع، ويعلنه بتحدُّ سافر جاهر إن كان ينوي غمز قناتهم فإنهم ذوو بأس شديد، وأصل رفيع، وعزة قعساء، لا تفت في عضدهم تهديداته الخرقاء الرعناء: (٥)

نُعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَدِغٌ فَإِذَا بَدَا لَكَ نَحْتُ أَثْلَتِنَا يَأْبَى لَنَا أَنَا ذُو أَنْفٍ إِنْ تَغَمَزْ بِالْخَرْقَاءِ أَسْرَتْنَا أَحْسِبْتَنَا لَحْمًا عَلَى وَضْمٍ يُخْفِي ضَمِيرُكَ غَيْرَ مَا يُيْتَدِي فَعَلَيْكَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا حَرْدٍ (٦) وَأَصُولُنَا مِنْ مَعْتَدِ الْمَجْدِ تَلَقَّ الْكِتَابَ دُونَنَا تَرْدِي (٧) أَمْ خَلْتَنَا فِي الْبَاسِ لَا نُجْدِي؟ (٨)

(١) المفضلية: ٧٩.

(٢) العذاب: الحيل من الرمل. والأحد: الشديد. والنحوس: الغامض.

(٣) المعلهج: الذي ليس بخالص النسب ولا كريم. والخبوس: الغنيمة.

(٤) صراري: ملاحون. والماكس: الجاي. والمكوس: الضرائب.

(٥) المفضلية: ٧٨.

(٦) الأثلة: شجرة، جعلها مثلاً لعزهم. والحرد: القصد والتعمد.

(٧) تردى: أي تقدم.

(٨) الوضم: الخشبة التي يقطع الجزار عليها اللحم، وهذا مثل في الضعف، إذ لا يستطيع اللحم الذبيح أن يدفع عن نفسه.

وَمَكَرَتْ مُعْتَلِيًا مَخْنَتَنَا
وَهَزَزَتْ سَيْفَكَ كَيْ تَحَارِبَنَا
وَأَرَدَتْ خِطَّةَ حَازِمٍ بَطْلٍ
وَلَقَدْ أَضَاءَ لَكَ الطَّرِيقُ وَأَنْهَجَتْ

والمكرُ منك علامة العمد^(١)
فانظُرْ بسيفك مَنْ به تُردي
حَيْرَانَ أُوْبِقَهُ الَّذِي يُسْدي^(٢)
سُبُلُ الْمَسَالِكِ، وَالهُدَى يُعْدي^(٣)

ومن هجوا النعمان، واشتدوا في هجائه وتهديده الحارث بن ظالم الذبياني، وهو من أشرف بني مرة وساداتهم وشجعانهم، فتك بخالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة، وهو في جوار النعمان بن المنذر، وفتك بابن النعمان انتقاماً لجيران له، أصابهم من النعمان شرٌّ في إبلهم وفي أنفسهم. وأبياته التالية في تهديد النعمان وهجائه بيّنة الدلالة على تمرد الشعراء على ملوك الحيرة، وتحدي سطوتهم وطفغياهم: (٤)

قِفَا فَاسْمَعَا أُخْبِرْكُمَا إِذْ سَأَلْتُمَا
فَأَقْسِمُ لَوْلَا مَنْ تَعَرَّضَ دُونَهُ
حَسِبْتَ أَبَا قَابُوسَ أَنْكَ سَالِمٌ
فَإِنْ تَكَ أَذْوَادُ أَصْبِنَ وَصِيبَةَ

مُحَارِبُ مَوْلَاهُ وَتُكْلَانُ نَادِمٌ^(٥)
لَخَالَطَهُ صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمٌ^(٦)
وَلَمَّا تُصِبَ ذُلًّا، وَأَنْفَكَ رَاغِمٌ؟
فَهَذَا ابْنُ سَلْمَى رَأْسُهُ مُتَفَاقِمٌ^(٧)

(١) المخنة: الأنف، أي مرغماً أنوفنا.

(٢) أوبقه: أهلكه.

(٣) يقول: اتضح لك حقيقتنا، فاتبع الهدى يملك على طريقك.

(٤) الفضلية: ٨٨.

(٥) محارب مولاة: يقصد نفسه، لأنه قتل ابن الملك. وتكylan نادم: يعني الملك النعمان بن المنذر، أي قتلت ابنه، فهو تكylan نادم.

(٦) يقول لولا الحرس المحيطون حوله لأردبته قتيلاً.

(٧) الأذواد: جمع ذود، وهي الجماعة من الإبل. يشير إلى ما أصاب إبل جيرانه وصبيتهم. ابن سلمى: ابن الملك النعمان، وكان في حجر سلمى أخت الشاعر وزوجة سنان بن أبي حارثة، وكان النعمان أودعها ولده. ومتفاقم: غير ملتئم.

عَلَوْتُ بِذِي الْحَيَاتِ مَفْرَقَ رَأْسِهِ وهل يركبُ المكروهَ إلا الأكارمُ (١)
فَنَكْتُ بِهِ كَمَا فَتَكْتُ بِخَالِدِ وكانَ سِلاحِي تَجْتَوِيهِ الْجَمَاجِمُ (٢)
أُخْصِنِي حِمَارِ بَاتَ يَكْدِمُ نَجْمَةً أتأكلُ جيرانِي وجاركَ سَالِمًا؟ (٣)
بَدَأْتُ بِهِذِي، ثُمَّ أَثْنِي بِهِذِهِ وثالِثَةٌ تَبَيَّضُ مِنْهَا الْمَقَادِمُ (٤)

ومن أشدَّ الصرخات التي أطلقها الشعراء في وجوه ملوك الحيرة، صرخات عمرو بن كلثوم في وجه عمرو بن هند، فقد كانت صرخات قوية، صورت تحدي الشعراء العرب كبرياء ملوك الحيرة وخطرتهم، وعبرت عن ثورتهم عليهم، ورفضهم التبعية لهم والخضوع لسلطانهم: (٥)

بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرَوْ بَنَ هِنْدِ تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا؟
بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرَوْ بَنَ هِنْدِ نَكُونُ لِقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا؟
تَهْدِدُنَا، وَأُوْعِدُنَا، رُؤِيدًا مَتَى كُنَّا لِأَمِّكَ مَقْتُونِينَا؟ (٦)
فِيأَنَّ قَنَاتِنَا، يَا عَمْرُو، أُعِيَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ، قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا

وهجا المتلمس المناذرة، واشتد في حملاته على عمرو بن هند، بعد أن طرده ونذر دمه، فأطلق لسانه في عرضه وأخلاقه ونسبه قائلاً: (٧)

أَطْرَدْتَنِي حَذَرَ الْهَجَاءِ وَلَا وَاللَّاتِ وَالْأَنْصَابِ لَا تَتَلُّ (٨)

(١) ذو الحيات: اسم سيفه.

(٢) خالد: هو ابن جعفر بن كلاب، قتله الشاعر وهو في جوار النعمان. وتحتويه: نكرهه.

(٣) أخصني حمار: يخاطب النعمان محقراً مستهزئاً. ويكدم: يعض. ونجمة: واحدة النجم، وهو النبت الذي لا ساق له.

(٤) يريد بالأولى قتل خالد بن جعفر، وبالثانية قتل ابن النعمان، وبالثالثة قتل النعمان، يتوعده بها. والمقاديم: أراد بها الناصية، تشيب من هول الضربة المقبلة.

(٥) شرح القصائد العشر، قصيدة عمرو بن كلثوم.

(٦) أي خدماً.

(٧) ديوانه: ٤٢.

(٨) لا تتل: لا تنجو.

وَرَهْتَنِي هِنْدًا وَعِرْضُكَ فِي
 شَرُّ الْمُلُوكِ وَشَرُّهَا حَسْبًا
 الْفِئْدَرُ وَالْأَفَاتُ شِيمَتُهُ
 بَشَسَ الْفُحُولَةَ حِينَ جَدَّ بِهِمْ
 أَعْنِي الْخُوُولَةَ وَالْعَمُومَ فَهَمْ
 صُحْفٍ تَلُوحُ كَأَنَّهَا خِلَلٌ^(١)
 فِي النَّاسِ مَنْ عَلِمُوا وَمَنْ جَهِلُوا
 فَافْهَمُ، فَعَرَقُوبٌ لَهُ مَثَلٌ^(٢)
 عَرَكَ الرَّهَانَ وَبَسَسَ مَا نَجَلُوا^(٣)
 كَالطَّنِّ لَيْسَ لِيَّتِيهِ حَوْلٌ^(٤)

هذا هو الفريق الثائر المتمرد على سلطان المناذرة، المتحدّي كبرياءهم،
 الموغل في هجائهم وتبكيتهم. ويبدو أن مواقف هذا الفريق من المناذرة استهوت
 شاعرنا طرفة بن العبد، فراح يحطب في حياهم، مستجيباً لدفقة الشباب الحارة في
 كيانه، مليباً داعي الثورة والانتقام والتشفي من الملك عمرو بن هند الذي لم يعبا
 بطموحه وتطلعاته وأمانيه، منكرأ عليه استعلاءه على الناس واستخفافه بهم
 وبحياتهم^(٥):

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو
 مِنَ الزَّمَرَاتِ أَسْبَلَ قَادِمَاهَا
 يُشَارِكُنَا لَنَا رَخِلَانَ فِيهَا
 لَعَمْرُكَ إِنَّ قَابُوسَ بْنَ هِنْدٍ
 رَغُوثًا حَوْلَ قُبْتِنَا تَخُورُ^(٦)
 وَضَرَّتْهَا مُرْكَنَةٌ دَرُورُ^(٧)
 وَتَعْلُوهَا الْكِبَاشُ فَمَا تَنْوَرُ^(٨)
 لِيَخْلُطَ مُلْكُهُ نُوكٌ كَثِيرُ^(٩)

(١) أي جعلت أمك هنداً رهينة في يدي أمجوها. والخلل: جمع خلة، وهو نقش يكون في بطانة السيف.

(٢) عرقوب: رجل كان يضرب به المثل في الكذب والإخلاف بالوعد.

(٣) الفحولة: أراد بها أبوة عمرو. والرهان: السباق. ونجلوا: ولدوا.

(٤) الطنن: ما جاءت به الريح من الحطب والقمش، فإذا بنى منه بيت فلا قوة له.

(٥) ديوان طرفة بشرح الأعلام: ٩٦.

(٦) الرغوث: النعجة المرضع. يتمنى أن يكون لهم مكان عمرو بن هند نعمة تحكهم.

(٧) الزمرات: القليلات الشعر والصوف. والقادمان: الخلفان المتقدمان من أخلاف الناقة، جعلها

للشاة. وأسبل: طال واكتمل. والضرة: لحم الضرع. والمركنة: ذات أركان. ودرور: كثيرة الدر.

(٨) الرخيل: الأثنى من أولاد الضان، أي يشاركتنا في لبنها رخلان. وتنور: تنفر.

(٩) قابوس: أخو عمرو بن هند. والنوك: الحمق.

قَسَمَتِ الدَّهْرَ فِي زَمَنِ رَخِيٍّ كَذَلِكَ الحُكْمُ يَقْصِدُ أَوْ يَجُورُ^(١)
 لَنَا يَوْمٌ وَلِلْكَرْوَانِ يَوْمٌ تَطِيرُ البَائِسَاتُ وَلَا نَطِيرُ^(٢)
 فَأَمَّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمٌ نَحْسِ تُطَارِدُهُنَّ بِالحَدَبِ الصُّقُورُ^(٣)
 وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنَنْظِلُّ رَكْباً وَقَوْفاً مَا نَحُلُّ وَمَا نَسِيرُ^(٤)

(١) قسمت الدهر: يشير إلى ما كان من يوم صيده ويوم وقوف الناس بيباه.

(٢) الكِرْوَان: جمع كَرْوَان، وهو طائر.

(٣) الحدب: ما ارتفع من الأرض في غلظ.

(٤) ما نحل وما نسير: أي نحن قيام على بابه ننتظر الإذن، فلا هو يأذن فنحلُّ عنده، ولا هو يأمر بالرجوع فترحل عنه.

الملك عمرو بن هند

تسنّم عمرو بن عند عرش الحيرة بعد وفاة والده المنذر بن امرئ القيس نحو سنة ٥٥٤ م، ولبث على عرشها حتى نحو سنة ٥٦٩ م^(١). وكان أبوه المنذر قد تزوج هنداً بنت آكل المرار، فولدت له أولاداً، منهم: عمرو بن هند الذي وليه على عرش الحيرة، وقابوس، والمنذر بن المنذر، ومالك بن المنذر. ولما كبرت هند، رأى ابنة أخيها أمامة بنت سلمة بن الحارث بن عمرو المقصور، وهي ابنة أخي هند، فأعجبته، فطلق هنداً وتزوجها، فولدت له أمامة عمراً، وهو الذي قتلته مراد بقضيب^(٢).

وكان المنذر بن امرئ القيس في حياة منه جعل الملك من بعده لابنه عمرو بن هند، ثم لقابوس، ثم للمنذر بن المنذر بعدهما، ولم يجعل لعمرو بن أمامة شيئاً. وهذا ما أوقع الشرّ بينه وبين إخوته.

ولما ملك عمرو بن هند استعمل إخوته الأشقاء، وقطع عمرو بن أمامة فقال عمرو بن أمامة في ذلك^(٣):

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية (طرفة)، بروكلمان ١/٩٢، معلقات العرب للدكتور بدوي

طبانة: ١٢٢، جواد علي ٣/٢١٨، ٨/٤٤٢.

(٢) قضيب: واد في أرض تهامة (معجم البلدان).

(٣) شرح القصائد السبع: ١١٨.

الإبن أمك ما بدا ولك الخورنق والسدير^(١)
فلائمنن منابت الا ضميران إذ منع القصور^(٢)
بكتائب تردى كما تردى إلى الجيف النسور^(٣)
إنا من العلات نفا ضى دون شاهدنا الأمور^(٤)

ولما لحق عمرو بن أمارة باليمن سار معه طرفة، فأصم عليه^(٥) عمرو بن هند. وكان عمرو بن هند جباراً عاتياً، لُقّب بمصرط الحجارة لقوة شكيمته وشدة بأسه، ويظهر من الروايات، ومن الشعر الذي وصفه أنه كان سريع الانفعال، يتألم بسرعة مما يسمع، ولذلك تعرّض لكثير من المشكلات بسبب حسه المرهف وانفعاله الحاد، وكان هدفاً لكثير من الشعراء، سدّوا إليه سهام هجائهم، وقذفوه بمرّ القدح والتجريح والتشهير^(٦).

ذلك أن الحكم الفردي يخضع في العادة لمزاج الحاكم، ولدرجة هدوء أعصابه، وقدرته على ضبط نفسه والتحكم فيها عند الغضب والانفعال؛ فإن كان الملك عاطفياً انفعالياً سريع التأثر والغضب، اتسم عهده بالمشكلات والمؤامرات، وهان عليه قتل الأشخاص لأتفه الأسباب، وفي حكم كهذا تكثُر الوشايات والمؤامرات، وينشط الحساد وأصحاب الذكاء للإيقاع بخصومهم، ويتحینون لذلك الفرص المناسبة.

نجد مصداق ذلك فيما أوقعه المستغلون بين عمرو بن هند وبعض القبائل

(١) الإبن أمك: أي الإخيك؟ والخورنق والسدير: قصران عظيمان في الحيرة.

(٢) إذ منع القصور: إذ مُنعت منى واستؤثر بها علي.

(٣) تردى: تسرع.

(٤) بنو العلات: الذين أمهاتهم شتى وأبوهم واحد. وتقضى دون شاهدنا الأمور: تقضى من غير أن نشهدها، ويُستبدّ علينا فيها.

(٥) أي حقد. وانظر شرح القصائد السبع: ١١٨، ١١٩، والروض الأنف ٢٢/١، ومعجم البلدان (قضيبة).

(٦) حزة: ٧٢، مفاتيح العلوم: ٦٩، الأغاني ٢١/٢٦ (ساسي)، الخزانة ٤١٧/٨، اليعقوبي ١/٢١٠، الفاخر: ٧٤.

العربية، فإذا هو هدف يُرْمَى من شعرائهم عن قوس واحدة، ونجده أيضاً فيما فعله المرجفون من الإيقاع بين عدي بن زيد العبادي والنعمان بن المنذر، وبين النابغة الذبياني والنعمان بن المنذر أيضاً، وغيرهم.

وزعم الرواة أنه كان لعمر بن هند يوم بؤس ويوم نعيم، فيوم يركب في صيده يقتل أول من لقي، ويوم يقف الناس ببابه، إن اشتهى حديث رجل أذن له، فكان هذا دهره، وكذلك كان أخوه قابوس^(١).

وقالوا: إنه كان لا يبتسم ولا يضحك، وكان شديد الهيبة، ويسمى محرّقاً أيضاً؛ لأنه حرّق تسعة وتسعين رجلاً من بني تميم برأ بقسمه لينتقم منهم بقتل مئة رجل منهم وإحراقهم بالنار^(٢).

ونستظهر من بعض الروايات أن عهد عمرو بن هند كان متسماً بشيء غير قليل من الازدهار والدقة والنظام، ففيها ما يفيد أنه أول ملك عربي ختم رسائله^(٣)

وفيهما ما يفيد أن الحيرة كانت موئل الشعراء في عهده، إذ لا تكاد تسمع بشاعر جاهلي مشهور إلا وله صلة به، أو خبر؛ فقد كان الشعراء يضربون إليه أكباد الإبل، ويقطعون المقارز والفلوات، لينشدوا شعرهم بين يديه، ويحفظوا بجوائزه السخية، ولم تكن مجالسه تخلو من منافسة الشعراء بعضهم بعضاً، ومن نقد بعضهم شعر بعض، كالذي حدث بين طرفة والمسيب بن علس أو التلمس، وبين عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة، وغيرهم.

وكثيراً ما كانت تؤدي هذه المنافسات بين الشعراء إلى غضب قبائلهم، وغضب الملك نفسه، وغضب الشعراء على منافسيهم وعلى الملك، ظناً منهم أنه متحزب لخصومهم.

(١) شرح القصائد السبع: ١١٨، تاريخ يعقوبي ١/ ١٢٠، العقد الثمين: ٣١٧.

(٢) الخزانة ١/ ٤١٧، حمزة: ٦٧، ثمار القلوب: ١٠٧، ديوان طرفة بشرح الأعلام وابن السكيت - الفصيحة الرائية.

(٣) الاقتضاب للبطلوسي نقلاً عن جواد علي ٨/ ٣٠٦.